# نبيُّ اللَّه هود عليه السلام

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠] رسول جديد جاء بعد أن عمَّ فساد ذرية الذين نجاهم اللَّه مع نوح، فانحرفوا عن المنهج، والرسول لا يأتى إلا عندما يعم الفساد، فلا يوجد من يصلح؛ لأن اللَّه تعالى لا يبعث الرسل إلا إذا لم يوجد فى الأمة كلها من يرفع كلمة اللَّه، وخلت من دعوة من سبق من الرسل لأن المناعة الإيمانية فى النفس البشرية قد توجد مناعة ذاتية لمن تحدثه نفسه بالانحراف، فيعود إلى ربه، وهذه هى النفس اللوامة. ولكن إذا لم توجد هناك مناعة فى المجتمع، لا من أهله ولا من القريبين منهم الذين قد ينصحونهم، أى أن المناعة لا تتوافر لا فى ذاته ولا فى مجتمعه، فلابد أن تقوم حجة اللَّه تعالى على الناس برسول جديد وبرهان سديد.

فبعد نوح حدث الانحراف وغرق فيه المجتمع كله، فأرسل اللَّه تعالى هودًا إلى قومه عاد، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ومادام أخاهم. فإنه لا يريد لهم إلا خيرًا، ومادام أخاهم يكون مأمونًا على ما يقول. ماذا قال هود لقومه؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم، وجعلوا للَّه شركاء وافتروا على اللَّه كذبًا، أى تعمدوا الكذب على اللَّه. ومادام أنه لا إله الا اللَّه، فالافتراء الذى افتروه هو أنهم اتخذوا غير اللَّه إلهًا، ثم قال هود: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١] لأن الذى قد يتعبكم أننى أعطيكم منهجاً وأطلب مالا عليه كأجر، ولكنى لن آخذ أجرًا. ومادمت لن آخذ منكم أجرًا فلا توجد مشقة فى اتباع ما أقوله، وقال هود إننى لن آخذ منكم أجرًا لا لأننى غنىّ، ولكننى أريد أجرى ممن أرسلنى وهو اللَّه سبحانه وتعالى.

واقرأ قوله جل جلاله: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [هود: ٥١] أى خلقنى معدًا لهذه الرسالة، فالفطرة هنا تعنى التكوين الأساسى لهود بأن يكون رسولا وأن يُعَدّ لما سيكلف به. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى ألا تستخدمون عقولكم وأنا لا أطلب أجرًا مقابل المنفعة، لأنك إما أن تأخذ أجر الشىء شراءً وبيعًا، وإما أن تنتفع به مقابل إيجار، أى إما تأخذه تمليكًا وإما

إيجارًا. ومادامت قد جاءت كلمة ﴿أَجْرًا﴾ فكأن هود يقول لهم: كان من الواجب عليكم أن تدفعوا لى أجرًا، لأننى سأقدم لكم ما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم، والأجر يكون مقابل المنفعة، ولما كنت أعطيكم منفعة فى الدنيا والآخرة. كان الواجب أن يكون الأجر عليها كبيرًا، ولكنى لم أطلب منكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، لأنه هو وحده القادر على أن يعطينى الأجر، أما أنتم فلا تقدرون على الأجر الكبير الذى أستحقه.

ثم يقول الحق تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] الاستغفار طلب المغفرة من ذنب وقع، والتوبة هى الرجوع إلى الله وعدم العودة للذنب أبدًا. والاستغفار ممافات، والتوبة هى عدم الإتيان بذنب جديد. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ الإنسان حين يطلب المغفرة من الله، ويتوب ويبتعد عن الذنوب يغفر له الله تعالى، ويتقبل توبته. ولكن الإنسان لأنه يعيش حياة رتيبة كل شىء مسخر لخدمته، الأرض تنبت له الزرع، والسماء تمطر له الماء، والحيوان يخدمه فى الكون.. هذه النعم قد تنسيك واهب النعمة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فنحن إن تولينا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا، لأن إجرام العبد إنما يعود عليه. فلا تظن أن كفر ومعصية العبد يعود على أحدٍ، إلا على نفسه. فهو الذى يشقى فى الدنيا، ويخلد فى العذاب فى الآخرة. كان هذا ما قاله هود لقومه، فردوا عليه بقولهم، كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] أى لم تأتنا بمعجزة دالة على صدق رسالتك. الله سبحانه وتعالى لم يذكر لنا فى القرآن الكريم ماذا كانت معجزة هود؟ ولكنه ذكر لنا المعجزة فى قوم صالح وهى الناقة. والمعجزة فى قوم نوح وهى الطوفان. كل رسول ذكر له معجزة.. فموسى مثلا شق البحر بعصاه، وإبراهيم أُلقى فى النار فلم تحرقه، وعيسى أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ [هود: ٥٣] وهكذا يسمون الإفك الذى يعبدونه آلهة. وهذا مردود عليه بالقياس والمنطق، لأنها مادامت آلهة فلابد أن يكون لها منهج عبادة، تقول: افعل كذا ولا تفعل كذا.. فما هو منهج الأصنام؟ إذن فهى آلهة بلا منهج، ولا توجد عبادة بلا منهج. إنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تضر وتنفع لأن هذه ديانة سهلة. فالآلهة التى ليس لها أوامر تكليفية تتركك لتتبع شهواتك كما تشاء، وهذا هو الدين الذى يتمناه الكفار، فلا يمنعهم من شىء، وفى

نفس الوقت يدعون أنهم مؤمنون ولهم آلهة، وذلك ضد الفطرة، لأن الفطرة لا تعبد إلا إلهًا له منهج وله قوة، ولكنهم يعبدون آلهة لا تحد من شهواتهم. يقولون لهم: اشربوا الخمر واعملوا الفاحشة، واسرقوا أموال الناس، واظلموا.. فلا ذنب عليكم. ولذلك فإن كثيرا من المثقفين الذين اعتنقوا البابية والبهائية والقاديانية لا يقيدون شهواتهم؛ بل يتركون لها العنان لتعمل ما تشاء، ويدعون فى نفس الوقت أنهم متدينون؛ ولا يمكن أن يستقيم مثل هذا الدين.

وقولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ ﴿إن﴾ هنا بمعنى النفى، و ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء. إذن فلابد أن يوجد مستثنى منه، ومستثنى. نقول جاء القوم إلا زيدًا، المستثنى منه القوم، وزيد هو المستثنى، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أى ما نقول إلا هذا القول؛ لأنك سفهت آلهتنا وأبطلت ألوهيتهم، فغضبوا عليك وأصابوك بالسوء أى بالجنون.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود] هود أشهد الله وأشهدهم بأنه برىء مما يشركون من دون الله، ثم تحداهم فقال: ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وهذه هى معجزة هود. أنه تحداهم وهو واحد وهم كثرة طاغية متجبرة. وقال لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ وأنا معى قلة ضعيفة، وأنتم أقوياء جبابرة، ورغم هذا فلن تستطيعوا أن تمسونى بسوء. هذه معجزة هود، فى أنه تحدى، ولا يوجد أحد يجازف بحياته وحياة المؤمنين بكلمة، ولكنه قالها لهم: اقتلونى ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون. وهود فى هذا مستند إلى قوة الله تعالى وقدرته. وهو الذى يستطيع أن يحميه لأنه قادر قهار، ولا إله إلا هو، فلا يوجد إله آخر.

ولذلك قال هود كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] هود قال لقومه إنه توكل على الله تعالى الذى لن يمكن الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم، لن يمكنهم منه، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إذن فكل ما يدب على الأرض وله حركة، الله تعالى آخذ بناصيته. والناصية هى مقدم الرأس والشعر الأمامى منها، عندما تريد أن تهين أحدا تمسكه من مقدم رأسه. ولذلك يقول الحق: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] الناصية التى هى مكان الفكر والشرف فى مقدمة الرأس.

وقال لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ولم يقل إن ربى وربكم على

صراط مستقيم. لماذا اختلف السياق؟ فعندما ذكرت السيطرة قال: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾. أى أن اللّه تعالى مسيطر على الكون كله. لذلك قال ﴿رَبِّي وَرَبُّكُم﴾، لأنكم وإن كنتم كافرين لا تستطيعون أن تخالفوا مراد اللّه فى كونه فى القهر والقدرة فهو سبحانه لا يفلت منه شىء. أما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأن الصراط المستقيم هو طريق اللّه تعالى وحده. أما آلهتهم فليس لها صراط ولا استقامة ولا أى شىء، ولكن اللّه يقضى بالعدل ولا يستخدم القهر فى الظلم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فإن تولوا، خطاب للكافرين ومعناه: إن تتولوا، وفى اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين، يقتصر فيه على تاء واحدة، أى أنهم عندما سمعوا كلام هود يتحداهم فى أن يقتلوه، ويحذرهم بأنهم لن يستطيعوا، ولو استعانوا بكل ما يدب على الأرض لم يكن لهم حجة ليردوا، أحسوا بضعفهم وهم كثرة، وبذلتهم وهم وجهاء القوم. فقرروا أن ينصرفوا عجزًا منهم. ولكن مهمة البلاغ كانت قد تمت، وأبلغ هود قومه ما أرسله اللّه تعالى به إليهم. إذن فلا عذر لهم إن نزل عليهم غضب اللّه سبحانه وتعالى. فاللّه جل جلاله يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] إذن.. فقد بلغهم هود رسالة اللّه تعالى، وهذا يعنى أنهم أنذروا وبلغوا.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧] أى أن اللّه سبحانه وتعالى سيهلككم ويأتى بقوم غيركم مؤمنين. والخلافة هنا أن يأتى قوم خلفًا لقوم، أى بعدهم. والحق - تبارك وتعالى - يقول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧] لأنه لا عبادة الناس تنفع اللّه جل جلاله، ولا عصيانهم يضره. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى رقيب على كل أمور كونه؛ لأنه قيوم.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨] ساعة تسمع: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ تعرف أن هناك أمرًا، وأمرًا مطاعًا سينفذ. والآن حانت ساعة التنفيذ مجرد صدور الأمر من اللّه، يعنى التنفيذ؛ لأن الكون يأتمر بأمره.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾

إياك أن تقول كيف ينجى اللَّه عددا من الناس من عذاب عام جامع؟ نقول إنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أى أن الداء لا يمس المؤمنين برحمة اللَّه تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]. إذن فهناك نجاتان: النجاة الأولى من عذاب الريح الصرصر، والنجاة الثانية من العذاب الغليظ الذى ينتظرهم فى الآخرة. ولكن لماذا غليظ؟ لأن الغلظة تعطينا مفهوم المتانة والقوة. والعذاب فى الدنيا موقوت بقدرات الدنيا وزمنها وعمرنا فيها. ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية.

إذن.. فعندما جاء أمر اللَّه نجى هودًا والذين آمنوا معه بالرحمة، ثم نجاهم من العذاب الغليظ فى الآخرة. وكأن نجاتهم من عذاب الدنيا الموقوت بشارة ومقدمة أنهم سينجون أيضًا من العذاب الغليظ فى الآخرة.

❁❁❁

## منهج الأنبياء عليهم السلام واحد

يقول الحق: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] وساعة نسمع: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أن كلمة أخاهم تدلنا على معان كثيرة، أولا: أنه من جنسهم ولغته من لغتهم، وعاش معهم وهم يعرفونه جيدًا، هذا هو الأنس بالرسول، لأنه لو كان أجنبيا عنهم لقالوا جاء أجنبى يحاول أن يأخذ السيادة علينا، ولو جاء بغير لغتهم لما تمكن من الحديث معهم، ولكن هناك بعض الآراء التى تقول إن هودًا لم يكن من قوم عاد.

نقول إن الأخوة نوعان: أخوة من الأب القريب، وأخوة من الأب البعيد وهو آدم.

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة من حيث الهداية مع قصة هود، فالحق يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩] وهذا أول اتفاق.. نوح إلى قومه وهود إلى قومه، ماذا قال نوح لقومه؟ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وماذا قال هود: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ الخلاف فقط فى أنه فى نوح قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ﴾ وفى هود: ﴿قَالَ﴾ بدون الفاء، وهذا اختلاف لا يتنبه له الكثيرون، ولكنه دقة فى الأداء القرآنى لأن المتكلم هو اللَّه، الفاء هنا فى رسالة نوح تقتضى التعقيب، أى كلما أتاه جبريل بوحى يبلغه لهم، وتفيد الإلحاح.. وهذا ما تبينه سورة نوح فى إلحاحه على قومه بدعوتهم للإيمان. ولذلك يقول الحق عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

نأتى بعد ذلك إلى تشابه الأسس الثابتة فى الدعوة إلى اللّه ومنهجه، نوح قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهود قال ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] فكأن هناك أُسسًا ثابتة لمنهج اللّه، أولها لا إله إلا اللّه، كل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة، ولكن هودًا لم يقل ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولكنه قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ نقول: إن نوحًا كان أول الرسل بعد آدم، ولذلك أعلمه اللّه تعالى بما ينتظر الكافرين من عذاب، وبأن اللّه سيهلكهم حتى ينذر قومه بالعذاب الذى سيأتيهم.

وفى قصة نوح قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] وفى قصة هود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] ذلك لأن نوحًا حينما بدأ يبلغ رسالته للناس لم يكن هناك مؤمن واحد فى قومه، أما قوم هود فقد كان لهم فى قصة نوح وقومه عبرة، فعندما أبلغ رسالته آمن معه فى الحال عدد من قومه، ويقال إن الذى آمن معه واحد فقط، اسمه ابن سعد، ولهذا حدث الاختلاف فى السياق، على أننا نلاحظ أن جواب قوم نوح اختلف عن جواب قوم هود، قوم نوح قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقوم هود قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ الضلال هو البعد عن الحق، والسفاهة هى الطيش والخفة.

وأضاف قوم هود: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والظن إما أن يكون عدم يقين، بمعنى ولكننا نرجح أنك من الكاذبين، وإما أن يكون يقينا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] ولكن الظن هنا فى هذه الآية معناه أن الكافرين من قوم هود يقولون إننا نرجح أنك من الكاذبين.

ماذا كان رد نوح وهود؟ نوح قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] وهود قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]. ونوح قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وهود قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف] الفرق هنا أن نوح قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وهود قال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ما هو الفرق؟ نقول: إن الفعل يدل على التجدد والاسم يدل على الثبوت، ونوح فى إلحاحه على قومه ليلا، ونهارًا، وجهرًا، وسرًا كان متجدد الدعوة. وهود كان ثابت الدعوة، ولذلك استخدم مع نوح الفعل ﴿وَأَنْصَحُ﴾، ومع هود الاسم ﴿نَاصِحٌ﴾ على أننا نلاحظ أن ﴿لَكُمْ﴾

موجودة فى قول هود. وهذا يفيد أن كل رسالات الأنبياء هى لصالح البشر.

ونمضى فى المقارنة، قول نوح عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] وهود قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] نجد أن تعجب القوم من رسالات السماء واحد، مع أننا كما بينا أن رسالات السماء تقتضيها فطرة الإيمان. على أن الخلاف هنا أن الحق فى قول نوح قال: ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفى قول هود لم يقل لتتقوا؛ بل قال فقط ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ نقول إنه فى قوم نوح لم تكن هناك سابقة عذاب، فكان لابد أن ينبه نوح قومه أن يجعلوا بينهم وبين عذاب اللّه وقاية. ولكن فى سورة هود كان العذاب قد وقع. ولذلك أنذرهم هود بأن ذكّرهم بالعذاب الذى وقع، فكأن قوم هود وهم خلفاء لقوم نوح كان لابد أن يتذكروا ما حدث لقوم نوح ويأخذوا منه العبرة، وكان ذلك أقوى من أن يطلب منهم أن يتقوا العذاب، دون أن يشير إلى سابقة حدثت فعلا لتجعلهم يتأكدون أن هذا العذاب واقع.

ثم بعد ذلك ذكّر هود قومه برحمة اللّه تعالى عليهم ونعمه، وفى هذا يقول الحق: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهكذا يذكر هود قومه بنعم اللّه تعالى عليهم أنه أعطاهم الأرض من بعد قوم نوح، وأعطاهم أجساما فارهة قوية، وأعطاهم من النعم والخير الكثير، وكان يجب أن يشكروا اللّه تعالى على كل هذه النعم، ولكنهم بدلا من الشكر واجهوا هودًا بموقف عجيب، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠] فكأنهم أولا رفضوا حقيقة الوحدانية للّه تعالى وهو أساس رسالات اللّه إلى أنبيائه، وقالوا: لا نعبد اللّه وحده. فكأنهم اعترفوا بالألوهية للّه، ولكنهم يريدون شركاء من صنعهم، يريدون أصنامًا ليعبدوها ليجعلوا منها شركاء للّه، وهؤلاء الشركاء لا حول لهم ولا قوة، ولا نفع لهم ولا ضر، حتى إن الصنم إذا سقط على الأرض احتاج لمن يصلحه.

❁❁❁

## أسباب اندثار حضارة عاد

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء] لأن تكذيب رسولهم يعتبر تكذيبا لكل الرسل فى

القضايا المتفق عليها من العقائد والأخلاق، والذى يتغير هو المسائل التى تناسب البيئات والمجتمعات، وعاد كانت قبيلة، والقبائل تنسب عادة إلى الأب صاحب الشهرة والنباهة، فعاد كان أبًا لهذه القبيلة، وقد يطلق على القبيلة «بنو فلان» أو «آل فلان» فهذا التكذيب من قوم عادٍ حدث عندما جاءهم أخوهم هود بدعوة من عند اللَّه تعالى، وقال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كأنه ينكر عليهم عدم تقواهم للَّه وهذا معناه، أنه يطلب منهم أن يتقوا اللَّه، ويقول لهم مستنكرًا فعلهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء]. الريع هو المكان المرتفع. والآية فى البناء: أنهم كانوا يبنون قصورًا آيةً فى الإبداع والفن، والعمارة والتشييد، والزخرفة والفخامة، والاتساع والعلو، ويقيمون المصانع والمبانى الضخمة كأنهم مخلدون فى هذه الدنيا. هذه القصة وضَّحتها سورة الفجر، فنحن فى مصر لا نعرف عن عمارة عاد وحضارتهم شيئًا، ولكن نعرف الكثير عن حضارة فرعون، ونشاهد الأهرامات التى بنوها كمقابر وذلك لأننا مصريون. ولازالت حتى الآن تبهر عقول العالم كله، وتعجز دول الحضارة الحديثة عن تفسير ألغازها، حتى أن العلماء العالميين احتاروا فى معرفة كيفية بناء حجارة الأهرام بدون مواد البناء، وأخيرًا اهتدوا إلى أن هذا تم بتفريغ الهواء؛ لأن مواد البناء عبارة عن طبقة طرية تملأ الفراغ بين الأحجار أو اللبنات وتفرغه من الهواء.

ولكن هذه الحضارة العجيبة حين نقارنها بحضارة عاد نجد أنها دونها؛ لأن اللَّه تعالى عندما تكلم عن حضارة عاد قال ﴿أَلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٨] فكأن حضارة الفراعنة لا تذكر بالنسبة لها، ربما يقول شخص ما: حضارة عاد هذه فى رمال الأحقاف بالقرب من حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية، التى يسمونها الربع الخالى، فأى حضارة فى هذه الجبال والرمال؟! نقول له: هذه الرمال أمر طرأ على هذه الحضارة فغطاها، بعد أن كان فيها زروع وثمار وأشجار، ولذلك يتأكد الإنسان حين يسمع أنَّ إحدى القبائل حاولت أن تذهب إلى هناك، فهبت عليها عاصفة من الرمل طمرت [1] القبيلة كلها، بجِمالها ورجالها ونسائها وحيواناتها.

وقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ نحن لم نشاهد هذه المبانى ولا يوجد الآن فى هذه الأماكن إلا رمال الصحراء، فهذه المبانى كلها مطمورة. والريع: هو المكان المرتفع، ويطلق على الارتفاع فى كل شىء ريع، ولذلك حين يقيمون عمارة أو أرضًا

(١) طمرت: طمر الشئ طمراً: ستره حيث لا يُدْرى ولا يُرَى المعجم الوسيط [١/ ٥٦٥].

يقولون: كم ريعها؟ والمعنى أتبنون بكل مكان مرتفع آية فى المعمار، أى شيئًا عجيبا، فهم لا يبنون مجرد بيوت تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء، ولكنهم يتفننون ويتكلفون فى البناء فوق الحاجة وفوق المسكن، ويبنون هذه الأشياء للعبث وصد الناس عن الإيمان بالرسول الذى بعثه اللّه إليهم. فكانوا يبنون شرفة عالية تكشف كل المنطقة المحيطة بمكان الرسول حتى يروا الناس عند ذهابهم إليه فيصدوهم عنه، فهذا من العبث، لأنهم يصدون الذين يأتون الرسول ليسمعوا منه كلاما يلفتهم إلى منهج الحق. والآية تطلق على كل شىء فاق الجمال والفخامة والدقة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، المصانع تطلق على موارد الماء، وتطلق على الحصون لأنها تحتاج إلى بناء وصنعة غير عادية؛ لأنها لا تبنى للإيواء الذى يحمى الإنسان من هموم الحياة العادية فقط، ولكن الحصون تحمى الإنسان من الأعداء الشرسين الذين يهددونه، فهم كانوا يبنون هذه الحصون ويبالغون فيها كأنهم سيخلدون فى هذه الدنيا، مع أنها فى الواقع دار ممر وليست دار مقر، والإنسان فيها كراكب استظل تحت شجرة ثم راح عنها وتركها [(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] البطش هو الأخذ بعنف، ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] فهم يبطشون بعنف وجبروت أيضًا، لأنك قد تأخذ عدوك بعنف، ولكن بعد ذلك يرق قلبك لذلته لك، فتخفف انتقامك منه، ولكن قوم عاد كانوا يبطشون دون رحمة؛ لأنهم جبارون.

فهؤلاء الناس كانت فيهم صفاتٌ ثلاث، وردت فى قول اللّه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء] كل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هى الكِبر والتعالى، فهم يبنون فى العالى، ويشيدون الحصون الضخمة كأنهم مخلدون فى الدنيا، وإذا بطشوا بطشوا بعنف ودون رحمة. فهم يريدون أن يأخذوا صفات تقربهم من صفات الألوهية؛ لأنه ليس أعلى من الحق، كما أنهم يريدون أن يستديموا بهذه الصفات؛ لأنهم يريدون علوًا واستبقاء خلود، ويبطشون متجبرين؛ لأنهم يريدون التفرد على الغير، وهذا مخالف لما يريده الحق سبحانه من عباده.

---

(١) إشارة إلى حديث رواه ابن ماجه [٤٠١٩] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: اضجع النبى ﷺ على حصير فأثر فى جلده، فقلت بأبى وأمى يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئاً يقيك منه فقال رسول الله ﷺ: «ما أنا والدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» وصححه الألبانى [٣٣١٧].

إذن.. قوم عاد كانوا يريدون علوًا وخلودًا أو استبقاء حياة، وكانوا يبطشون بغلظة دون رحمة، ولكن من رحمة الله تعالى بالناس وبالخلق أنهم كلما غفلوا عن منهج من سبق من الرسل يبعث الله لهم رسولا يذكرهم بالمنهج.

إذن.. هذا التوالى فى إرسال الرسل ليردوا على غفلة الناس، وينبهوهم إلى اتباع منهج الله تعالى.

إذن.. هود عليه السلام يذكر قومه بأن من رحمة الله بهم أنه لم يتركهم على ضلالهم وكفرهم، ولكن الله تعالى أرسل إليهم رسولا يذكرهم بالله ويردهم إلى منهجه، ولذلك قال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الشعراء] فهذه التقوى لله لن تذهب عنكم ما أعطاكم الله من أنعام وبنين وجنات وعيون؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، وليس العكس وأنا لا أطلب منكم أن تطيعونى لذات نفسى، لأنى لن أستفيد من إيمانكم شيئًا. والله تعالى غنى عنكم؛ لأنه سبحانه قبل أن يخلق الخلق كانت له صفة الكمال المطلق، فهو تعالى لم يصبح خالقا بعد أن خلق، ولا بالمقدور عليه صار قادرًا، ولكنه خالق قبل أن يوجد مخلوق، وقادر قبل أن يوجد مقدور عليه. فهذه الصفات له فى ذاته قبل أن توجد متعلقاتها.

وقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء] أى: اتقوا الله الذى أعطاكم كل هذه النعم التى تعرفونها مثل الصحة والعافية، وأمدكم بآله.. لأن كل مدرك فى الوجود له آلة تدركه بها، فالعين ترى المناظر، والأذن تسمع الأصوات، والأنف يشم الروائح، واليد تقضى بها المصالح والحوائج وتسلم بها وتلمس بها، واللسان تتكلم به وتتذوق الأشياء، والرجل تمشى بها وتذهب إلى المسجد وإلى مكان العمل.. إلخ. وفوق ذلك أمدكم بالأنعام والبنين والحدائق وعيون الماء والأنعام: هى الضأن والمعز والإبل والبقر التى تأكلون لحومها، وتشربون ألبانها، وتنتفعون بأصوافها، وأوبارها، وتحملون عليها متاعكم وأنفسكم، وأمدكم بالأرض الخضراء ذات الأشجار المثمرة والحدائق الغناء، وعيون الماء التى تشربون منها وتسقون حيواناتكم، كل هذه النعم كانت موجودة فى جنوب الجزيرة العربية قبل أن تغطيها الرمال، وأنتم حين تطيعون الله تعالى وتتقونه فأنتم لا تشكرونه على نعمه فقط، ولكن تجعلون لأنفسكم وقاية من عذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥] فلا تظنوا أنكم

أخذتم نعم اللّه تعالى وهربتم بها؛ لا، إنكم سترجعون إليه فيحاسبكم على أعمالكم، فإن لم تشكر السابق من النعم، فخف اللاحق من النقم، فماذا كان ردهم عليه؟ قال تعالى: ﴿قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء] كلمة ﴿أَوَعَظْتَ﴾ تدل على أن الحق يجرى على لسان المكابر؛ لأن الوعظ ليس تعليمًا ولكنه مرحلة تأتى بعد التعليم، فأنت علمت الحكم ولكنك أهملته، فأنا أعظك لتعمل به، فالوعظ لك دليل على أنك علمت المطلوب فغفلت عنه.

فما كان من قومه إلا أن أعرضوا عما جاءهم به وأصروا على كفرهم وضلالهم، وقالوا له: إنهم لن يستجيبوا له سواء استمر فى وعظه أو حتى إن لم يكن عنده وعظ يعظهم به، فالأمر يستوى عندهم، فكأنهم لم يسمعوا. فالذى نحن عليه الآن هو ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ - بضم الخاء - بمعنى أخلاق الأولين، وهناك قراءة تقول: «إِنْ هَذَا إِلاَّ خَلق الأَوَّلِينَ» - بفتح الخاء - اختلقوا هذا الكلام من عندهم ونحن لن نؤمن به، أو أننا وجدنا آباءنا الأولين على هذا الوضع وسنكون مثلهم ولن نؤمن بما تقول. وإن كانت كلمة: ﴿خُلُقُ﴾ بمعنى الأخلاق. فالخلق صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة. والصفات التى يكتسبها الإنسان صفات لا تعطى مهارة من أول الأمر. بل تعطى مهارة بالتدريب، فإذا كان عملا ماديا يدويا يقال: العمل بالنسبة له أصبح آليا، ومادام صار كذلك فلن يتعب صاحبه ولا يحتاج منه إلى تفكير.

فكذلك الخلق المعنوى مثل الآلية فى الماديات، فمثلا الإنسان حينما يرى شخصًا محتاجًا يسأل الناس، يُحدث نفسه أن يعطيه شيئًا مما أعطاه اللّه، وفى بادئ الأمر ربما سأل هذا المحتاج عن ظروفه وما هى حاجته، ويتردد قبل أن يعطيه شيئًا، وبعد ذلك تتأصل فيه صفة الكرم، فساعة يجد أحدًا محتاجًا يعطيه دون أن يشعر به أحد، كذلك الذى يتعلم الفقه مثل طلاب الأزهر مثلا، إذا سألته عن حكم معين تجده يتذكر ما درسه فى هذا الموضوع ويورد على عقله ما يعرفه عن هذه المسألة ويستغرق وقتا حتى يصل إلى الحكم، ولكن بعد أن يدرسها تماما ويعقلها ويصبح ملما بتفاصيلها إذا سألته عنها يجيبك فى الحال بأنها كذا وكذا؛ لأنه تمرن عليها وأصبحت آلية عنده.

فالخُلق صفة ترسخ فى النفس يصدر عنها الفعل بيسر وسهولة. فالرسل كلهم كانت عندهم هذه الأخلاق ودعوا الناس إليها، وكان كثير من الناس يكذبونهم

ويصفونهم بشتى الصفات، ويرمونهم بشتى التهم، من كذب وافتراء وسحر وجنون.. إلخ. والأخلاق السيئة كانت راسخة أيضًا عند الكافرين فى كل العصور فتجدهم دائماً يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. [الزخرف: ٢٣] وهذا كله جاء بعد قولهم: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] أى أن هذا أصبح خلقا وعادة عندهم لن يحيدوا عنها؛ لأنهم توارثوها عن آبائهم وأجدادهم وصارت صفة ملازمة لهم، فهم على كفرهم ثابتون وبضلالهم متمسكون.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء] كان الحق تبارك وتعالى قبل الرسول محمد ﷺ، يؤيد الرسول بمعجزة ويجعله يبلغ منهجه إلى الناس لا يطلب منه أن يؤدب الناس، ولكن اللّه تعالى يتولى التأديب، لكن أمة محمد ﷺ أمنت على نفسها هذا التأديب، لأن اللّه رحمها من عذاب الاستئصال الذى عاقب به الأمم السابقة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فجعل اللّه تعالى من أمة محمد ﷺ مؤدبا لمن يخرج عن منهج اللّه ويتصدى لدعوة الحق. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

ففى الأمم السابقة كان القوم إذا كذبوا رسولهم وعاندوه يهلكهم اللّه. وكلمة ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ دليل صدقها فى الوجود قائم فى أماكن كثيرة، مثل إرم ذات العماد التى بلغت حضارتها القمة ولم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والاندثار، وكذلك الحضارات التى تواردت فى الكون لم توجد من بينها حضارة ظلت طوال الدهر. فلو كانت هذه الحضارات مبنية على قيم ثابتة، لاكتسبت مناعة ضد الزوال، ولكن لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق، أخذها اللّه تعالى أخذ عزيز مقتدر، فتنتهى الحضارة دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وسر تفوقها، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]. ولذلك ربنا سبحانه يذكرنا بهذه الحضارات التى أصابها الهلاك فيقول تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات] فأنتم أيها الناس لم تبلغوا مثلما بلغه أصحاب هذه الحضارات التى أهلكها اللّه بظلمهم وكفرهم، فإذا كانت حضارتهم القوية المتقدمة لم تمنعهم من أخذ اللّه لهم، فعليكم أيها الناس أن تتنبهوا وتعودوا إلى اللّه خاصة وأنكم أقل منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم، ومعنى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ

﴿أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩] الآية هى الشىء العظيم الملفت؛ لأن الحضارات التى قامت وبلغت هذه القمة فى التقدم والقوة لم تستطع أن تحمى نفسها من الدمار مما يدل على أن الذى دمرها أقوى منها وأشد، فعلى الإنسان أن يأخذ من ذلك العبرة والعظة حتى لا يقع فيما وقعوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠] أى إن ربك الذى رباك وجعلك على هذه الدرجة من الإيمان والاستقامة هو وحده العزيز الذى لا يُغلب؛ لأن المُربِّى تعظم منزلته فى الرباية بمقدار كمال المربَّى - بتشديد الباء وفتحها - وكأن اللَّه تعالى يقول: فأنا ربك الذى أكملت تربيتك وجعلتك على هذه القمة من الخلق والتربية، فأنا رب عظيم. إذن المربِّى يبلغ القمة فى الرباية إذا صار من رباه عظيمًا. ولذلك لم يقل ربهم وإنما قال «ربك» فالذى يريد أن يرى قدرة الربوبية يراها فى تربيتك أنت أيها الرسول، ولذلك يروى أن الرسول ﷺ قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» فكأن الحق سبحانه وتعالى يعطى نموذجًا لدقة تربيته ولعظمة تكوينه لما يصنعه على يديه بمحمد لله، وكأن محمدًا ﷺ أكرم مخلوق مُربَّى فى الأرض.

والعزيز هو الذى لا يُغلب، ومع ذلك فهو ليس بجبار ولكنه رحيم بعباده، ولذلك قلنا إن الإسلام يربى الأمة الإسلامية على ألا تجمد عند خصلة ولا عند خلق ولا عند طبع؛ لأن كل طبع فى الإنسان له مهمة، ولذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] فالمسلم ليس مجبولا على الذلة ولا على العزة، وإنما الموقف يجعله ذليلا أو عزيزًا، فمع المؤمنين تكون الذلة والخضوع ولين الجانب والرأفة والرحمة، ومع الكافرين تكون العزة والشدة والقوة، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فالمسلم ليس مطبوعًا على الشدة ولا على الرحمة، لأن الرحمة فى غير موضعها خور.

❁❁❁

## لماذا وقع غضب اللَّه على قوم هود؟

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] أفصح قوم هود عن العلة فى شركهم، وفى هذا هم مقلدون لقوم ضلوا عن الحقيقة، فهم مقلدون لآبائهم، وليسوا مقلدين عن اقتناع، فلو أنهم ناقشوا المسألة مناقشة عقلية بسيطة لعرفوا أنهم فى ضلال، فالصنم الذى لا يستطيع

أن ينفع أو يضر نفسه، لا يمكن أن يكون إلها ينفع أو يضر غيره، وليتهم رفضوا النقاش فقط، بل تحدوا وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] فكأنهم أغلقوا كل باب للاقتناع وزادوا على ذلك بأن طلبوا العذاب من اللّه تعالى كما حدث لقوم نوح الذين يعرفون قصتهم جيدا، هم طلبوه بأفواههم، فماذا حدث؟ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١] فكأنهم وهم يناقشون هودا ويقولون: لن نعبد اللّه وحده ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب. جاء الخبر إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجس وغضب من اللّه، والرجس هو التقذير ضد التطهير، الشيء تزكيه وتطهره، فإذا جاء له رجس امتلأ بالقذارة، وفى ذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

ولكن كيف يقال إن العذاب قد وقع عليهم، ووقع فعل ماض بينما العذاب سيأتيهم، أى أنه قادم فى المستقبل؟

نقول: إن كلام اللّه سبحانه وتعالى مجرد عن الزمان ماضيًا وحاضرًا ومستقبلا، واللّه سبحانه وتعالى حين يقول قد وقع عليكم فكأنه حدث فعلا؛ لأنه لا أحد يملك أن يمنع قضاء اللّه، فاللّه قادر على إنفاذ قضائه فى أى وقت، فمتى قضى فقد حدث. ولكن لماذا غضب اللّه عليهم وأنزل عليهم العذاب؟

الجواب فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١] وهنا تظهر لنا المكابرة من الكفرة؛ ذلك أن هؤلاء الناس صنعوا أصناما ثم أطلقوا عليها أسماء من عندهم، ثم قالوا: إنها آلهة، مع أنها أسماء أطلقوها هم، فكيف يصنع المخلوق إلها ثم يسميه، ثم بعد ذلك يصر على عبادته، ولو أن اللّه سبحانه وتعالى أنزل عليكم سلطانًا بهذا ربما كان لكم العذر، ولكن ها هو رسول اللّه ينهاكم عن أن تفعلوا ذلك، ولكنكم ترفضون وتتحدون.

إذن.. فقد استحق عليكم العذاب، ﴿فَٱنتَظِرُوٓا﴾ أى انتظروا ما سيقع عليكم مستقبلا من عذاب اللّه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أى أن هودا رسول اللّه سيبقى معهم حتى يتحقق هذا العذاب، ويأتى تحديا لهم على ما سبق أن تحدوا به من الإصرار على الشرك وطلب العذاب من اللّه، ولكن إذا كان الحق قد قال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ ثم يقول: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا﴾ أى أن الأمر لم يأت ولابد لهم أن ينتظروا مجيئه، نقول إن هذه الآية مثل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا

﴿تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] أتى فعل ماض، ولا تستعجلوه أى أن زمن الفعل لم يأت بعد فلا تتعجلوا حدوثه، نقول: إنه مادام اللّه سبحانه وتعالى قد قال: ﴿أَتَىٰٓ﴾ فقد وقع فعلا، فمع أنه لن يظهر لكم إلا فى المستقبل، إلا أنه قد وقع وانتهى ومسألة حدوث الفعل لكم مسألة واقعة لا محالة، لأن قضاء اللّه تعالى كما قلنا لا يستطيع أن يمنعه أو يوقفه أو يؤجله أحد.

ويقص علينا الحق سبحانه وتعالى نهاية قوم هود بعد تكذيبهم وطلبهم العذاب فيقول: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢] ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا وسيلة النجاة فى قصة هود كما ذكرها لنا فى قصة نوح حين قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤] أى أن وسيلة نجاة المؤمنين من قوم نوح كانت السفينة، فما هى وسيلة نجاة المؤمنين من قوم هود؟ لقد كان العرب قديما إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى اللّه ليذهب عنهم السوء، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك.

وعندما بدأ عذاب اللّه يصيب قوم هود أصابهم الجدب فلم تنبت الأرض فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة على رأسهم رجل اسمه القيس ورجل اسمه مرصد ابن سعد وكان لهم أخوال يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق بن لاوث بن سام، فنزلوا عندهم فأكرموا وفادتهم وجاءوا لهم بالطعام والشراب ومجالس الطرب، وهؤلاء جاءوا من أرض جدباء، فاستمرءوا هذه الضيافة وظلوا شهرا يأكلون ويشربون دون أن يذهبوا إلى الكعبة. فتعجب معاوية بن بكر كبير العماليق من حالهم، فهؤلاء الجماعة جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب، ولكنهم نسوا ما جاءوا من أجله ولم يذهبوا إلى الكعبة، وفكر معاوية كيف يلفت انتباههم لكى يذهبوا إلى الكعبة، وفى نفس الوقت لا يقال إنه ضاق ذرعا بضيوفه فتكون سبة له بين العرب، وكانت عند معاوية مغنيتان فأخبرهما بهذا الأمر، فقالتا له: قل فى ذلك شعرا ونحن نغنيه لهم فيذكروا ما جاءوا من أجله؛ فعمل لهم شعرًا يُعرِّض لهم فيه وأمر المغنيتين أن تغنيهما به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فيهم ... لعل اللّه يصبحنا غمامًا

فيسقى قوم عاد إن عادا ... قد امسوا لا يبينون الكلاما

ثم أكمل الأبيات بأن قوم عاد أصابهم الجدب حتى فقدوا القدرة على الكلام فما عادوا يستطيعون كلاما، وظلت المغنيتان ترددان هذه الأبيات حتى تنبه القوم لما جاءوا له فانتهوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون إلى اللّه أن يمطر أرض عاد، فسمع داعيهم وهو:

قيل بن عنز هاتفا يقول: اختر لقومك... هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة تريدها أن تذهب لقومك؟ فاختار السحابة السوداء اعتقادا منه أنها مادامت سوداء داكنة فلابد أن تكون مليئة بالمطر، وعاد ومن معه إلى قومهم وأخبروهم بما حدث واختيارهم للسحابة السوداء، فلما رأوا السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا: جاءنا المطر، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. حينئذ يرد الحق سبحانه وتعالى عليهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ... ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤] هذه هى قصة العذاب الذى حدث لعاد قوم هود.

أما كيفية نجاة هود والذين آمنوا معه، فإنه حين رأى السحاب قادما سمع هاتفا يقول له: اخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب، فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقى الله عز وجل.